بياع الصيص

بقلم وصفي آل وصفي

قابع في ركنه ، حلسانه منسوج بال ..

صامت لا ينادي على بضاعته « الصيص » ، مستسلم لا يدفع عنها الذباب ..

يمر به اهل المدينة كالغرباء ، لا تومض عيناه بمعرفة ولا تتحرك يد بتحية .. بين الحين تروع عيناه بنظرة رثاء !

لكني اعرف قصته ..

كانت له تجارة رائجة ، واصدقاء يجتمعون امام محله صيفا وداخله شتاء ، وامرأة ..

اعرف قصته من بدايتها ، شبه اسطورة انصت الى مأساة . رواها احدهم لابن عمي عندما وصل الى البلدة شيخا لجامعها ، فحكاها لي ونحن جالسان امام المقهى الوحيد بالبلدة نشرب الشاي الاسود وندخن ونتكلم في السياسة . كنت قد تحلقت في البلدة ساعات ازور ابن عمي ، وانا في طريقي الى قريتنا هربا من جو القاهرة المتوتر اثر حريق بشابر عام الثورة . وجلسنا امام المقهى المقابل للمحطة تقضي الساعة الباقية على موعد القطار ، ولمحت بياع « الصيص »

فتعلقت به عيناي حتى مضمض ابن عمي شفتيه وشرع يروي لي قصته مؤكدا انه يحكيها كما سمعها تماما ..

وانا احكيها لكم بكلمات ابن عمي ، لا اضيف غير القليل الضروري من لساني ..

اسمه عبد الله ، وامرأته كان اسمها محاسن ..

ذات يوم دخلت محاسن تشتري ارخص ما يبيع عبد الله فاخذت معها قلبه ، وتركته يجري وراءها ينقصي !

وسرعان ما أحاط بكل شيء عنها ، ولم يكن كثيرا ..

وحيدة شيخ كفيف يصنع السلال فتحملها يوم الاثنين الى السوق ، تبيعها وتشتري بعض ثمنها زادا يكاد الا يشبعهما فيكاد الجوع ان يرميهما في الاثم ، لولا ان الشيخ من اسرة عاشت احيالها شريفة وهي تقيم بخير دار في البلدة شريفة وهي تساكن باعة الفجل وعمال المحاجر وصانعي السلال والطبالي ، لولا ان العتمة وعت حديثه امها الراحلة ، من الطهر والمعة ،

ولم يتردد عبد الله ، لم يعزعه أن يستقر قلبه حيث لا مال ولا جاه . ثم يصح لاعتراضات اغلب اصدقائه ، وبادر يخطب محاسن ويتزوجها ..

كانت له تجارة ، وكان له أصدقاء ، وكانت له امراة ..

كان ذلك عندما بلغ هول الطاء ، سقط المجزرة العالمية الاخيرة ، وتربع على عرش الجشع يقسم الخلق فريقين : فريقا يأكله ، وفريقا يشاركه لعق دم الحياة او يأكله !

ومضت الأيام بلد ، الفرص ، لكل نهار .. وعبد الله قانع لايبتئس ولا يتبرم ، لا يغالي في سعة أرباحه ، ولا يستعمل نفوذ اصدقائه . لا يسجل باسم زوجته عمارة ، ولا يشتري لها عربة ، يتجاهل حتمية القول في باطنه ، ويتمم بسر معقول وسعادة وادعة .. لا ينغصها حتى حرمانه من الولد .

وتحققت آية الانجيل « من له يعطى ويزاد ومن ليس له يؤخذ منه .. »، بتفسير حرفي بشع . واشتدت مخالب الغول على رقاب باعة الفجل وعمال المخابز وصانعي السلال والطوالي ، وقد اختار والد محاسن ان يقضي أيامه الباقية حيث عاش .. بينهم .

واقبل الشيخ على فتاته يوما يحدثها بما يقاسون ، يصف لها جزع الدموع وحواء البطون ، ويهمس في اذنها ان نساء كثيرات اوشكت أن تخرج الى الطرقات وان يدخل البيوت من غير ابوابها !

ولم يجد لدى محاسن سوى عبراتها تسلل بها يديه ، فقام يسعى الى صهره يحدثه ويصف له ويهمس في اذنه . وكان عبد الله يعلم ان دموع «الطلاي» قد جفت من طول بكاء وان بطونهم ضمرت من طول خواء ، وان ثمة نساء خرجت فعلا الى الطرقات ورجالا دخلوا فعلا البيوت من غير ابوابها .. الا انه كان ايضا تاجرا بين التجار ، يدرك ان فكرة التعاون لخفض الاسعار فكرة صائمة ، لايقبلها العمالقة بحال ولا يطيقها المستورون والافراد !

وشرع يشرح للشيخ حقيقة الموقف، يفهمه انه لايستطيع شيئا .. وان العين بصيرة واليد قصيرة ، والامر لله من قبل ومن بعد . يحاول أن يترضيه . يستدرجه للاقامة مع ابنته ترعاه وتخدمه . الا أن الشيخ كان قد جاء بعتاد الشيخوخة ، واصرارها يأبى أن يستمع او يتراجع وانتهى الأمر بخروجهما الى معارف من التجار .. يتمثل الشيخ ويثور لاملاق الجماهير ، ثم ينتفض ويدع عبد الله يعرض ويناقش مصلحة التجار في الا تثور الجماهير !

وتأثر البعض لانفعال الشيخ ، وسلم البعض بمنطق عبد الله ، ومن بعد انفعال .. أو تسليم .. كانت الوجوه تكتسي باشتمامات محاملةتودع وتعتذر !

وافترق الرجلان آخر اليوم ، الشيخ مرتاح الضمير سعيد بما سعى، وعبد الله متوتر يستدلع في وجدانه وفكره شرار خاطف لخواطر هائجة مجنونة ..

وطال الليل ، ومع الفجر بلغ اضطراب عبد الله ذروته ..

ودوى فى اذنه نغم عميق ، انفسح على اثره ستار وهمى عن مسرح هائل ..

وحار هاتف خفى ، بصوت مرتجف يرقصون ؟ يرقصون خفض الاسعار ؟ حسنا .. لنرقصهم !

وانفصل عنه خياله ، فرأى شبحه يضخم .. يتسامق .. يملأ المسرح الشاغر .. يذرعه فى حماس وانفعال بطل !

***

اشرقت شمس اليوم التالى فقامت البلدة على مفاجأة مذهلة ، لا يسعها ان تصدق ما تسمع : كيف ؟ متى ؟ لماذا ؟ لكنها كانت الحقيقة ، كان عبدالله يبيع دون ربح ، اى ربح .. البضائع الحرة والمسعرة ايضا !

وهبت البلدة ، وتجمع الناس امام محله يتعاركون .. حتى الاغبياء بعثوا خدمهم يحصلون على نصيب من « بركة » عبد الله !

وتوسط بعض افراد « القوة » ، التى وكل اليها امر المحافظة على النظام ، بين « الطلاب » وما يشترون : النصف بالنصف !

وانحشر فى الحشد لصوص ، وشواذ ..

وتصارب اثنان من الموظفين ، واحد من كبار صغارهم وآخر من صغار كبارهم ، عندما قارن الاول بين سوء توزيع الدخل وسوء توزيع العمل !

واصدرت المجلة المحلية عددا خاصا فى صفحة واحدة فقط ، ربتته بصورة « الانسان .. البطل » ، لم ترد به كلمة واحدة عن غيره من التجار او المتاجرين !

***

وذهب يوم ، وطلع صباح جديد ..

ووصلت جرائد القاهرة تشير فى سطور قليلة ، بقاع صفحاتها ، الى « التاجر المجنون » ! واتصل « الباشا » المدير بصاحب العزة « البك » المأمور يزجره ويساله عن الكلام « الفارغ » الذى ترامى الى مسامعه ..

وانطلقت عصابات هربلة من الجهاة ، ترهق فى هوس : « يعمر دينه .. عبد الله .. يعمر دينه عبد الله .. »!

واجتمع اثرياء الحرب من التجار ، فى الغرفة التجارية ، يدخنون اللفائف ويتسامرون ويحتسون القهوة ويتراهنون متى ينهار « المحول » ، واقترح احدهم أن يروجوا اشاعة بأن عبد الله قد اصابه الجنون ، فضحك آخر وعرض فكرة اسرع اثرا : ان عبد الله اشتراكى اهوس واخيرا استقر رأيهم على فرية اشد نكاية : ان عبد الله قد ارتد عن دينه ودخل عصابة الشيوعيين !

واحتفى المستورون من التجار ، والاقزام ، بعضهم أرقده المرض فجاة ، فسافر يعودهم .. وبعضهم لحق بالعمالقة يتودد اليهم ويسافقهم ويسالمهم مد آجال الديون !

وذهب يوم ثان ، وبدأ يوم ثالث مشحون بالصمت ..

نهب البلد محل عبد الله ، وخلعت له الارفف القارعة والجدران ، ورفض تجار الجملة ان يوردوا له بضاعة .

واخذوا ما بيده من مال فاقتصوه سدادا لديونهم التي لم يحن موعدها . وحتى اصدقاؤه ان يورطهم ، او ان يطلب منهم معونة ، فتجنبوا الطريق الى محله في عدوهم ورواحهم . وانهارت اعصاب محاسن تحت وطء الكارثة ، فانفجرت تبكي وتصرخ في وجه ابيها وهو يحدثها عن الصبر . والايمان : « انت السبب . انت السبب . الله يسامحك » !

***

وكان يوم رابع ، فيه تمت المأساة ..

نشبت مشاجرة حامية أول الصباح بين عبد الله وعميد التجار جاء متجره يتشفى ، يهينه ويسبه . ويتطاول على شرفه «عامل روحك بطل .. اعمل فكرك واحد وحده . اعمل .. حتى بطل .. يهز منا شعرة ؟ انا عربتي وحدها تقف قدام عشرة متلك عشر سنين ! ان كنت بطل صحيح ، اعمل بطل على طول يابن ام عبد الله اوزعت الصناعة على المسورين ؟ فاضل محاسن ، ورمها علشا يدل عطلتها في البيت .. على الاقل المكسب منا فيها مضمون ! » .

وافلت الرجل في حماية اتباعه فراح عبد الله يحبط رأسه بكفه ويبكي ..

وفي الضحى خطف سكين « السطرمة » فجاء واندفع يجري الى قلب البلدة ، يزمجر ويدمدم ويصرخ بعبارات متقطعة : « محاسن ؟ ! المجرم والله المظلم .. يالله المظلم .. اشرب من دمه ! » .

وكانت محاسن في طريقها الى المحل، استوقفها قلق غامر فاقبلت تهرول .. تريد ان تطل من بعيد وتعود. وشاهدته منتفش الشعر ، يجري والسكين في يده .. فحدثت غريزتها كزلة جديدة توشك ان تحل برجلها وانطلقت تهتف وتستغيث : « عبدالله .. مصيبتي ! عبد الله .. مصيبتي ! والنبي يا عبد الله .. الله يهديك يا عبد الله .. يارب .. يا ناس.. « ردوه .. » .

ولم يسمع عبد الله من هتافها واستغاثتها شيئا ، كانت حواسه كلها مركزه في يده وفي السكين ..

وقصرت المسافة بينهما ..

وبغتة انحرفت سيارة نقل ضخمة من احدى الطرق الجانبية ، فصرخت محاسن تحذر زوجها . واستطاع السائق ان يتفاداه بحركة سريعة ، ثم تراخى انتباهه فلم يسعفه بطاقة جديدة ليفاداها هي ..

وكانت صرخة مروعة ، وصدمة .. وسكون ..

***

وسكت ابن عمي ، فاسندت رأسي بين يدي اتساءل كم أضاف الى القصة وكم اسبغ عليها من عنده .. واتخيل ما أغفل من تفاصيل .

وجذبت عيني كلمتان كبيرتان حمراوان في صدر جريدة اليوم السابق التي لفت لي فيها روحة ابن عمي حبرا وجبنا للعطار « الملك يقتل » .. غادرت اللغة بحركة تلقائية اريد تتمة العنوان ، ولكن باقي الصفحة كان مطويا !